عز الدين بن عبد السلام والقومية العربية

للأستاذ مرسى على نوفل

تغذية العواطف بتاريخ الأبطال يحبب إليها الحرية والكرامة والعزة وأمجادنا الوطنية والتاريخية ثابتة ، والتاريخ القومى كما يقول تريستلى يكون المواطن الصالح ، وقال الشافعى التاريخ ينضج العقول ، وقال ابن خلدون إن التاريخ يوقفنا على أحوال الماضين حتى تتم فائدة الإقتداء ، وقال يدسدم إن للشرقيين تاريخاً حافلا بالعظمة وليس عليهم كى يبقوا مجداً إلا أن يؤمنوا بعظمتهم .. وعزالدين بن عبد السلام من رجال التاريخ القومى ومن رجال الدين ومن رجال الجهاد والتحرر، وقد ولد بدمشق وقدم مصر فى القرن السابع الهجرى وأقام بها نحو عشرين سنة يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر وقد ترك دمشق حين أعطى الملك الصالح مدينة صيدا للفرنج وهى على ساحل البحر الأبيض وقيل إنها مدينة التين والزيتون وهى باسم صيدون بن حام وقد نادى ببيع العبيد للأنفاق على الحروب فلم يسمع أحد لقوله فعزم على السفر إلى الشام فخرج الناس وطلبوا منه أن يرجع فرجع وخاف ابنه أن يقتل فقال أنت أقل من أن تقتل فى سبيل الله .

وكان يتولى قضاء الوجه القبلى والقاهرة وكان يسكن المقس وهى منطقة محطة القاهرة ، وقد بيع العبيد وشاركه فى هذا الرأى صديقه ابن الحاجب ، وقد ولد ابن الحاجب فى إسنا وكان أبوه حاجباً لحاكم كردى وهو بن ماسك الذى ينسب إليه شارع الموسكى وقد حفظ القرآن فى قريته ثم حضر إلى القاهرة ودرس الفقه والأصول وسافر إلى الشام وتولى التدريس فى الجامع الأموى ثم حضر إلى القاهرة والإسكندرية ومات عن خمس و ثمانين سنة وقد سجنه نجم الدين كما سجن عز الدين ثم أطلق سراحهما ودفن ابن الحاجب فى مسجد أبى العباس بالأسكندرية ،

وعاصر عز الدين أبا الحسن الشاذلى وابن دقيق العيد وكان يقول تفخر مصر برجل فى الجنوب وهو ابن دقيق العيد وبرجل بالاسكندرية وهو ابن المنير . . . وابن منير كان يلبس عمامة من الصوف الأبيض مع الصوف الأحمر ويقول أنا أحمدى وكان يحج ماشياً وعلى كتفه ركوة يسقى الناس منها وكان يحمل الهدايا من مصر إلى إخوانه فى مكة وكان ابن المنير من أصدقاء سيدى ابراهيم المتبولى وأشار عليه بحفر بئر وكثرت المساكن حولها حتى صارت بلداً . وابن رقيق العيد ولد فى مدينة قوحى وأبواه متجهان إلى الحج وقد درس الفقه الشافعى على تلميذ والده الشيخ بهاء الدين هبة الله ثم رحل إلى القاهرة وتولى القضاء وعزل نفسه مرة بعد مرة وأبطل خلع الحرير التى كانت تخلع على القضاة وجعلها من الصوف وكان جواداً وكان السلطان لاجين يقدره وكان ينشد الزجل والشعر ودفن بسفح المقطم ، وكانت مدينة قوحى مركزاً للتجارة ويسافر منها حجاج المغرب وفيها ذهب وأشجار وهى فى مقابلة جدة وكان فيها معبد من أيام كليوبطرة وقيل إن بطليموس هو الذى بناها وكان فيها كثير من أهل الحرف وجوها حار وكان بها دار لضرب النقود وكان المعشر بالنيل يخرج منها وفيها عقارب ولذلك يسيرون بالليل على ضوء المصابيح ومعنى قوحى فى اللغة القديمة الدفن حيث كان يقوم فريق منها بدفن الملوك وفيها الحواة . وكان عز الدين بن عبد السلام يحضر مجلس الشاذلى ويسمع كلامه وقال الشاذلى ما على وجه الأرض مجلس فى الفقه أبهى من مجلس الشيخ عز الدين وما على وجه الأرض مجلس أبهى من مجلس المنذرى فى الحديث وقد امتنع الشيخ المنذرى مفتى مصر عن الإفتاء لأجله وقال كنا نفتى قبل حضوره وأما بعد حضوره فالمنصب له وقال أحد العلماء يرجع إليه فى الفقه مع الزهد والورع .

وكان ابن المنير متبحراً فى الفقه والأصول والأخبار والبلاغة والأنساب ، وأخذ عن ابن الحاجب وكان له أخ اسمه زين الدين وتولى قضاء الإسكندرية بعد أخيه وسمع بمصر والحجاز والشام ، والمنذرى كان عالماً بالحديث

وأقام بالمدرسة الكاملية عشرين سنة وقال عنه ابن دقيق العيد كان أدين منى وأنا أعلم به وله كتاب الترغيب والترهيب وابن دقيق كان له ابن إسمه قطب الدين وكان قاضياً بالمحلة وكان له أخ إسمه سراج الدين وكان شاعراً وتصدر لنشر العلم وصنف المفتى فى الفقه ومات بها ، وابن عبد السلام كان له ابن اسمه عبد اللطيف وأخذ العلم عن أبيه ومات بالقاهرة . وبهاء الدين هبة الله من قفط وتعلم بإسنا وقصده الطلبة من كل مكان وانتهت إليه رياسة العلم فى إقليمه . .

وقد درس والد عز الدين بالمدرسة الكاملية وهى كما جاء فى الخطط التوفيقية مدرسة أنشأها الملك الكامل بالنحاسين بجوار المدرسة البرقوقية وكانت مدرسة للحديث وعمل واحدة بدمشق وكان مكانا لبائعى القمح وسوقاً للرقيق والكامل خامس ملوك بنى أيوب وسكن القلعة وحارب الفرنج وأصابه زكام بدمشق فدخل الحمام فاندفقت المواد إلى معدته وتورم جسمه ونزلت به حمى ونهاه الأطباء عن الفىء فلم يصبر وكان يحب العلم وسماع الأحاديث النبوية وكان العلماء ينامون بجوار سريره للمناظرة بالليل وكان يباشر الأمور بنفسه وكان يراعى جسور النيل بنفسه وعين خفراء على الطرق للأمن ويخرج زكاة ما يجمعه وكان عز الدين يسر عند سماع الأحاديث النبوية وأصابه انقباض مرة وسئل فقال كيف أضحك والفرنج يحاصرون دمياط وقد أخبره صوفى بقرب زوالهم وتم ذلك بعد زمن قليل . . ولرجال الدين أثر وشأن فى الحياة العامة و إن عرف التخصص فى فروع العلوم فإن الأمانى القومية واحدة وعامة وقد طلب أبو عثمان الحيرى مالا لينفقه على الثغور فلم يجد وأصابه حزن فأعطاه أبو عمر والسلمى ألفين من الدراهم وقد أشار بذكره ليحصن غيره وكان لا يرضى الشهرة فقال إن هذا المال أخذته من مال أمى وهى لا تعلم وسأرده إليها حتى تأذن وأخذه ثم أحضره فى العقيمة وطلب ألا يعلن عنه وكان غاندى يبدأ صلاته بالأناشيد الوطنية وكان يعجب كثيراً بالمغنية الهندية كشمى لأناشيدها ولتبرعها بثلاثة أرباع إيرادها لأعمال الخير ومن طرائف الحرب العالمية أن راهباً يابانياً انضم إلى صومعة غاندى

ويواظب على الصلاة وعلى ترتيل الأناشيد الدينية وقد اعتقله الانجليز كما اعتقلوا جميع اليابانيين وقد أمر غاندى أن تعتبر صلاة الراهب وأناشيده جزءاً من صلاة مريديه كل يوم كما لو كان صاحبها موجوداً . . . وأثار العلماء الشعور العام فى حرب الأفرنج فتبرعت النساء بشعورهن وخرجت أم سليم وهى حامل لعبد الله بن طلحة على جمل مع النبى وحملت خنجراً وسئلت فقالت إن دنا منى مشرك بعجته وخرج عمرو بن الجموح فى غزوة أحد وكان شديد العرج وكان له بنون أربعة يشهدون مع النبى المشاهد وقد أرادوا حبسه وقالوا إن الله قد عذرك فأتى النبى وقال إن بنى يريدون أن يحبسونى عن هذا الوجه والخروج معك و إنى والله أرجو أن أطأ لعرجتى هذه فى الجنة فقال أما أنت فقد عذرك الله فلاجهاد عليك ، وقال لبنيه لعل الله يرزقه الشهادة فخرج وقتل ، وتثار الوطنية بالأمثال عن فظائع الأعداء ، نبش كتشنر قبر المهدى وأرسل جمجمته إلى متحف فى لندن وقتل أكثر من أحد عشر ألفاً وأسر عشرين ألفاً لرصاصة فى نافذة فى مدينة أم درمان وكافأته دولته بلقب لورد و بعشرين ألفاً من الجنيهات وربط أميراً فى ذيل حصان مع ضربه بالسياط وكان يسرق التحف واغتصب أرضاً من كنيا لنفسه و إذا كان العدو يتعصب فى استغلاله فإن الكرامة توجب الجهاد والإخلاص فى سبيل الحرية وقد فاز فريق أسبانى فى التنس على فريق انجليزى وكان يلعب بآلات بريطانية وكان الفريق الانجليزى يلعب بآلات أمريكية وقد هاجت الصحف البريطانية واعتبرت هذا ليس من الوطنية . ومن تغذية القومية إشاعة الأدب الهادف وقال جويلز يجب على الأدباء أن يكتبوا فى كل المسائل التى تهم الأوطان بأسلوب يجعلها مفهومة عند الشعب ، ومن التعبئة الفكرية فى اليابان .. صلوا كل يوم وارفعوا راية البلاد فى الأعياد وفى الحفلات واقتصدوا فى كل شىء والبسوا الملابس البسيطة وأقيموا حفلات الأفراح والمآتم فى بساطة واحترام واتركوا العادات القبيحة وعليكم بالنوم المبكر واليقظة المبكرة واهتموا بتربية الأطفال وشجعوا بعضكم على الشىء فهو من أنفع التمرينات الرياضية الواجب ممارستها واجعلوا روح المودة سائدة بينكم .

وأنشد توماس الأمريكى قصيدة على جنود واشنطون أثارت حماستهم وانتصروا ، وقال الشيخ محمد عبده للشباب : إعلموا أن الإيمان بالله وبالوحى ليس لتصافى الفكر وقال حكيم لا يمكن أن يقوم قوم بأداء واجباتهم بغير إيمان بدين سماوى .. وأهل الإتزان من الغربيين يشيدون بالوحدة و بالقومية العربية وقالت سندای تيمس إن المقاومة العربية التى يقوم بها كل عربى انتجت أعظم مظاهرة من مظاهر الوحدة العربية التى شاهدها الشرق الأوسط من زمن بعيد . وقال حافظ :

إذا ألمت بوادى النيل نازلة باتت لها راسيات الشام تضطرب